«شكسبير العرب»، البعلبكي، الذي لا يعرفه اللبنانيون

جودت حيدر لـ «الكفاح العربي»

أنا اول عربي فتح البحار شعراً...

غنية حياة الشاعر جودت حيدر. وهو يحمل في داخله قلق الشاعر والفيلسوف في آن معاً. فهذا الشاعر الذي يكتب باللغة الانكليزية تحمل قصائده روح الشرق. بل ان هذا الشرق موجود بكل نكهته واحلامه ومشاعره وخيالاته. فالقصيدة التي يكتبها جيدر تزاوج بين الابداع والعلم. وكما انه لا اختراع من دون خبرة وفهم للاسس والقواعد والنظم، كذلك لا ابداع من دون وعي بالادوات. فالشعر في النهاية هو محيط بلا حدود. ويحوي في طياته عناصر الابداع والمعرفة.

كيف عاش هذا الشاعر، ما هي مصادر ثقافته، بمن تاثر، وبالتالي ما هو مفهومه للقصيدة ودورها. كل هذه الاسئلة حملناها الى الشاعر في دارته البعلبكية حيث يعيش ببساطة بين المطالعة والكتابة وقلق الشاعر الفيلسوف بازاء المصير الانساني. وكان هذا الحوار.

حاوره: الدكتور حسن عبدالله شرف

■ ابصر النور في مدينة الشمس «بعلبك» عام ١٩٠٦. حاز إجازة في التاريخ من الجامعة الاميركية ببيروت. انتقل الى فرنسا فتخرج من كلية الزراعة مهندساً. ثم انتقل الى الولايات المتحدة الاميركية ليتخصص في التربية والتعليم وعلم النفس فينال البكالوريوس العامة فيها. تمرّس بنظم الشعر بالانكليزية وله بها دواوين مطبوعة «اصداء» و«اصوات»، واخرى مخطوطة. إلا ان روحه الشرقية وشخصيته العربية حاضرة فيها جميعاً بصورة مميزة. عاد الى الوطن الام وعمل مديراً للجامعة الوطنية بعاليه، ثم مديراً لمدرسة النجاح الوطنية بنابلس في فلسطين، ثم مستشاراً عاماً للعلاقات الصناعية في شركة نفط العراق (I.P.C)، ثم عمل مهندساً زراعياً... ذلك ما اغنى شخصيته العملية وعمق تجاربه الانسانية وجوّد صناعته الشعرية.

□ حدثني عن تجربتك الشعرية. كيف كانت البداية؟ لماذا كتبت بالانجليزية؟

■ في الحرب العالمية الاولى نفتني الحكومة التركية مع عائلتي الى تركيا بهدف قمع الشعور القومي العربي لدينا، واجبرت على تعلم لغتها. وعندما رجعت الى لبنان بعد الحرب كانت لغتي العربية ركيكة للغاية. في بيروت دخلت مدرسة «الأنتر ناشيونال كولج» وكانت لغة التعلم فيها الانكليزية. ثم سافرت الى فرنسا وبعدها الى اميركا لأكمل تعلمي العالي.

امضيت سنوات في الولايات المتحدة الاميركية من دون ان اعود ولو لمرة واحدة الى وطني. في مدينة دالاس كنت العربي الوحيد آنئذ الذي يتعلم فيها فلم تتح لي فرصة تعلم العربية... هناك بدأت محاولاتي الاولى في كتابة الشعر متأثراً باساتذتي معلمة الأدب التي كانت مولعة بالشعر وبالشاعر «برن» تحديداً.

كتبت لها بعض الشعر، وحازت محاولتي هذه على إعجابها فشجعتني... ثم صرت اشترك في مباريات شعرية تقيمها الجامعة. الأمر الذي دفعني الى مضاعفة الجهد والاستغراق في المراجعة والدرس فجوّدت لغتي بالصقل والمراس. وكنت مقدماً في المباريات لتمكني من اللغة والتجربة، وكان نجاحي يحملني على الاستمرار ومتابعة التحصيل والصقل والصناعة. وخلال اقامتي الطويلة في اميركا لم تتح لي فرصة التكلم بالعربية...

انت تركي!

ومن الطرائف التي صادفتني هناك انني قدمت جواز سفري الى القنصلية الفرنسية في الولايات المتحدة الاميركية طالباً تبديل جوازي بجواز لبناني حين اعلنت دولة لبنان الكبير، وصدر دستور ١٩٢٦ غير ان القنصل رفض طلبي قائلاً: «انت تركي» (!)... لانك لم تكن في لبنان اثناء محادثات «لوزان»: فانتهت المناقشة بيني وبينه الى مشادة صارخة...

واذكر وقتها انني كتبت رسالة مطولة الى المفوض السامي الفرنسي في لبنان مستغرباً الامر ومطالباً بحقي بالجنسية اللبنانية. ثم اضطرني الامر أن ارسلت الى عائلتي في لبنان كي يحصّلوا لي تثبيت حقي بالجنسية اللبنانية، ولم يتمكنوا من إحراز ذلك إلا بعد الجهد الجهيد ومرور عدة اشهر وحين انهيت دراستي الجامعية، رجعت الى وطني الأم لبنان لأعطيه بشغف كبير ما كنت اكتسبته من علم وخبرة وتجربة في الغرب الاوروبي والاميركي. وعدت الى تعلم العربية بداب، وحاولت الكتابة بها إلا انني لم اتمكن، لسوء الحظ، مما جعل لغتي الام لغتي الإبداعية.

الشاعر جودت حيدر وابنة حفيده

وحملني على متابعة الكتابة شعراً ونثراً بالانكليزية. ومع انني اقرا كثيراً من الكتب العربية والفرنسية، فإنني ما زلت غير قادر على التعبير الكتابي بهما بصورة استسيغها. هذا واذكر انني اكتسبت اصول الثقافة العربية، وغذيت شعري بروافد اسطورية وفلسفية عربية فضلاً عن الروح الشرقية والخيال الشرقي الذي يبرز شعري ونثري.

جذور عربية

وفي كل حال، ارى ان شعري الانكليزي ليس إلا وروداً جذورها عربية نبتت في حديقة غناء يمكن للناظر اليها لاول وهلة رؤية الازهار، وبعد قليل إذا تامل اكثر يرى النحلة التي ترشف الرحيق... والى ذلك عندي محاولات مجتهدة باللغة العربية التي احبها، واحب التمرس بها، ولسوف تبصر النور قريباً.

□ كيف تقيم شعرك؟ والى اي مدرسة تنتمي؟

■ إن الشعر عندي هو بناء وفلسفة وشعور. وقد عبرت عن هذه النظرية بوضوح في العديد من قصائدي. ما الشعر إلا ومضة الفكر التي تربط بين الابداع والعلم. وانا وددت ان اكون هويتي من خلاله. العلم هو خبرة الحياة اليومية التي تهيىء للإبداع. فكما انه لا اختراع من دون خبرة وفهم للاسس والقواعد والنظم، كذلك لا إبداع من دون وعي بالادوات، وكلاهما واحد في النهاية من موقع الانسان الذي يصهر الاشياء ببعضها مولداً جسد الابداع.

الشعر هو محيط بلا حدود، يحوي في طياته عناصر الابداع والمعرفة. فيه يصعد الشاعر السلم الى القمة ملقياً نظرة شاملة على الكون. وهذه النظرة تحوي في طياتها الحذر لكونها تولّد في نفس الشاعر اسئلة على الانسان الشاعر ان يتطرق اليها بحكمة وحنكة.

شعري مثل حديقة مغلقة إلاّ انها ليست مقفلة تنفتح بسهولة للقارىء المطلع ليرى فيها الازهار. إن امعن النظر شاهد الرحيق، وإن زاد في الإمعان فاض فيه المشهد الرحيقي كله.

فامام ذواقة الرحيق الشعري لا يكون شعري غامضاً: فالغموض الإبداعي ضروري للشعر عكس ما هو الإبهام المستغلق على ذاته.

الشاعر جودت حيدر: طموح للافضل

مطلق الزمان والمكان

شعري لا ينتمي الى زمان ومكان محددين، واشعر بالرضى العميق عندما يوصف بانه شمولي. فشعري المكتوب بالانكليزية على الرغم من توجهه العالمي، فإنه مغموس بجذوري الشرقية كإنسان عربي شرقي يحس بتجارب امته ويعاني معاناتها في الصميم. وقد كتبت كثيراً لها وعنها. ومن دواعي سروري ان شعري وصف بالشمولية وهذا القول في الحقيقة هو ملخص ما قاله البروفسور «مونرو» رئيس دائرة اللغة الانكليزية بالجامعة الاميركية في مقدمته على ديوان شعري «اصداء» (Echoes)، وإني اعتبره قولاً نافذاً وصميمياً. فانا تمكنت من جمع التضاد والمفارقة بهدف رسم صورة واضحة ومتجانسة منسكبة في خلية واحدة تعطي المعنى المتكامل للفكرة التي اردت ان اعبر عنها.

من هنا انا اعتبر ان الشاعر الكبير يتقدم على الفيلسوف، ولا يدرك تقدم الشعر على الفلسفة إلا الطليعيون. نعم الشاعر يسبق الفيلسوف في الرؤية، وهذه مسلمة مؤكدة في تاريخ الفكر البشري.

شعريتي بنت خبرتي

□ ما هي مصادر شعرك؟

■ إن مصادر غذائي الشعرية هي الساعات الطويلة التي امضيتها وامضيها بين كتبي التي تشمل فيما تشمل الادب والفلسفة والعلوم العالمية. إنها السنون الطويلة والعديدة التي خبرت فيها الإنسان والحياة. وإن شعري تاثر وتطور بنيوياً ورؤيوياً بهذه الاختبارات والتجارب المعمقة. وإن تجربتي الجادة مع اللغة الشعرية التي غدت بالمراس والدربة لغة المفارقة والتضاد التي تستدعي العمق الحي والمدلول الوثيق والفاعل والتعبير المبتكر.

ديوان «اصوات» كله عن البحر

ديوان «اصداء» بالانكليزية

□ كيف توائم بين الشعر والفلسفة؟

■ في اشعاري سكون فلسفي، ومحاولة اقتراب من الحياة الروحية والتاملية. على انني لست في المقابل من هواة الهروب من الواقع او الاستغراق في الخيال. انا من الراغبين ان تبلغ اشعاري مرحلة الكونية عبر التحسس والادراك اللذين يعكسهما مدى اتساع افكاري وموضوعات قصائدي.

صحيح ان الشعر لم يمتزج بالفلسفة في الغرب إلا حديثاً، اما عند العرب فإن الشعر امتزج بالحكمة والفلسفة منذ «طرفة بن العبد» و«لبيد» في العصر الجاهلي و«ابو العلاء المعري»، الشاعر الفيلسوف، وغيره كثير في العصر الإسلامي... وفي الغرب، فإن «بوشكين» الروسي شاعر فيلسوف، وكذلك في فرنسا كان «اندريه جيد» فيلسوفاً شاعراً. وفي اعتقادي ان الشاعر الكبير يتقدم على الفيلسوف ويسبقه في الرؤية، ولا يدرك تقدم الشعر على الفلسفة إلا الطليعيون.

اطمح للأفضل

□ ما هو موقفك من حركة الشعر الحديث، والى اي مدى تاثرت بالشعر الإنجليزي والاميركي الحديث؟

■ تاثرت بالشعر الانكليزي الحديث واسئلته القلقة، لسبب بسيط وهو انني اعاصر مثل هذا الشعر، وقد التقيت بعض اعلامه الكبار امثال: «روبرت فروست» و«دافيد واغنر»، واعجبت بشعر البعض الآخر. ولكني لا اعتبر نفسي منتمياً الى اي من مدرسة هذا الشاعر او ذاك.

لقد اطلعت على معظم اعمال الشعراء الاميركيين والبريطانيين. وقرات ترجمة «لغات كثيرة الى الانجليزية. وكان إعجابي ببعض الشعر يحملني على العمل اكثر فاكثر من اجل تحسين شعري، فانا لا اطمح لان يكون شعري بمثل جودة شعرهم وحسب، بل اطمح دائماً الى الافضل.

مثلاً، قرات للشاعر اللورد «تنيسن» شعراً يصف به حركة البحر، وكانت القصيدة تبدا بكلمة «Break, Break» اي:

«تكسّر، تكسّر»: فهو يصف تكسر امواج البحر على صخور الشاطىء. وكانت نغمة هذه الكلمة تعبر عن طبيعة الصوت الذي تصدره الأمواج حيث ارتطامها بالصخور. اعجبني الوصف كثيراً لانني احب التأمل والتعمق والدقة في الوصف. وقد لبثت هذه الصورة حية في مخيلتي وقتاً طويلاً، الى ان كنت ذات يوم اتمشى على شاطىء بحر بيروت الرملي برفقة اخي. وكان البحر هادئاً والأمواج في مد وجزر متواتر ولطيف، تصدر اصواتاً شجية: فانتني فكرة، وتوقفت لاكتب قصيدة في وصف البحر الذي طالما احببته، بدات بـ «Wash, Wash» اي «إغسل، إغسل، شواطئك الرملية يا بحر». وكانت هذه الكلمة ايضاً تعطي نغمة مد الأمواج على الشاطىء الرملي نفسها وانحسارها عنه، بالصورة والصوت والحركة، وكانها تغسل عنه التعب والحزن والهموم. وبالفعل كانت قصيدة رائعة تضاهي ما قرأته للورد «تنيسن».

كل المعاني

الحقيقة، انا لم اتأثر بصورة مباشرة باحد من الشعراء، ولم اتبع مدرسة معينة، حديثة كانت ام كلاسيكية، كنت وما زالت صوت نفسي وواقعي المحيط بي. كتبت شعري بلوني ولغتي وتجربتي. وعبرت عن ذاتي وهمومي وقلقي. كتبت عن ذكرياتي، ووطني، واهلي وكل ما يدور ويخطر في بال الحياة وموضوعها.

انا احببت البحر وتعشقته: فكتبت فيه الشعر الجميل والقوي. لعلي مغرم به لأنه يشبهني. كلانا يحمل الهموم والسنين، وذكريات الأيام والأسرار وكرّ العبر والتجاريب والأخبار والحكايات والحذر والسحر والأساطير والصخب والغموض، والصراع والحركة والقلق، والمدى الرحيب، والتأمل العميق، وحركة الحياة المدوية.

وقلّما حفل الشعر العربي قديماً وحديثاً بالبحر كما حفل به شعري. فانا عاشرته كثيراً، وعرفته عن كثب، واستنبطت منه التأمل والحكمة، وحدقت ملياً في مداه الرحيب، واحتضنني اياما واياما، ولطالما سافرت على كفه. ولم اعثر في بطون الكتب التي طالعتها، على الأسرار والمعاني التي ادركتها في اعماق تأملاتي البحرية.

مع فروست

□ في اي مناسبة تعرفت بالشاعر الكبير «روبرت فروست»؟ وما موضع إعجابك بشعره؟

■ التقيت الشاعر الاميركي روبرت فروست، وذلك مصادفة بالقطار المسافر الى كانساس في قلب اميركا، يومها لم يكن شاعراً معروفاً. ثم نشأت بيننا صداقة استثنائية امتدت طويلاً وتوطدت الى حين وفاته. وقد كتبت فيه قصيدة هي من الروائع لديّ.

لا بد من الإشارة الى ان «فروست» كافح كفاحاً مراً لتوكيد شاعريته اميركياً وعالمياً إن «فروست» لم يجد ناشراً له في اميركا في ذلك الزمان.

الغنائية الغربية

اكثر ما اعجبني في شعر «فروست» متانة حداثته الطالعة برسوخ وثقة من الكلاسيكية، والتي تشف شيئاً فشيئاً لتغلب عليها تلك المسحة الغنائية التي تذيب القلوب. وقصائده في الغالب هي بضمير المتكلم. وقد ترجم شعره الى عدد من لغات العالم، ولاسيما الفرنسية واليابانية والروسية والالبانية، والألمانية وقد اعترف له الجميع بالشعرية والتفوق، فمنح جائزة «بوليتزر» السنوية للشعر اربع مرات. كما انه دعي لزيارة روسيا، وزاره وقتها في مقره في موسكو الرئيس خروتشوف. ودعا «فروست» في اثناء لقائه بالرئيس الروسي الى التنافس الإيجابي بين الجبارين - انئذ - وذلك لتزدهر البشرية، ويعمّ السلام الحقيقي بين شعوب الأرض.

إن الشعر الإيقاعي هو الأساس بالنسبة لمفهومي للشعر. صحيح، انني كتبت الشعر الإيقاعي، وكتبت الشعر النثري ايضاً كغيري من الشعراء المحدثين: إلا انني في هذا الاسلوب الأخير اردت مجاراة ادب العصر. والمجاراة هنا لا تعني الافتعال او محاولة اكتساب المؤيدين ابداً: إنما تهدف الى اطار المقدرة على بز الجيلين كلاسيكيين ومحدثين معاً. كما انها تعني المقدرة على التعبير الإبداعي بكلا الاسلوبين ايضاً.

شكسبير العرب

□ في الغرب كان لنبوغك الشعري صدى طيب فلقبت بشكسبير العرب. ومنحت عدة اوسمة وجوائز تقديرية. حدثنا عن ذلك، وما هو المدى الذي بلغه صداك في دنيا العرب والشرق؟

■ عرفني الغرب الأميركي والأوروبي وقدرني حق التقدير، وقد منحت لقب شكسبير العرب تقديراً لشعري وقد خلعت عليّ هذا اللقب الناقدة الأميركية، ميسز كارتيز من جامعة باركلي (Mrs Curtis) كما منحني قداسة بابا روما وساماً تشريعياً مصحوباً بشهادة تقدير من الفاتيكان. ومنحت ايضاً من فرنسا وسام «جوقة الشرف». هكذا اعترف العالم الغربي بشعريتي . ودخلت المحاضر العالمية والموسوعات والمكتبات والجامعات والمحافل الدولية كشاعر عالمي اثبت مشروعيته: فموسوعة «غينس» وسواها تشهد على ذلك. وطبعت دواوين وعدة قصائد في اميركا وبريطانيا.

اما في الشرق العربي، فإنني نلت وساماً من مصر من بطريركية الاقباط، ومن القدس في فلسطين نلت وسام الحجيج من كنيسة القيامة. كذلك نلت وساماً من بطرك الروم في دمشق. وفي وطني الحبيب لبنان نلت وسام الاستحقاق اللبناني المذهب.